المحاضرة رقم 06: التيارات الجديدة في الآداب المعاصرة (3)

– العبثية (اللامعقول)–

ارتبطت "العبثية" بـ"التيار الوجودي" و"العدمية" "Nihilisme" ارتباطا وثيقا، فمن الوجودية انبثق العبث "Absurde" بكلّ ما يحمله من مرجعيات وأسس وخصائص ممهداَ لنظرة جديدة في الفلسفة وبعدها الأدب، وذلك نظراً لأنّ هذا الأخير يستقي الكثير من الاتجاهات والمواضيع ووجهات النظر من الفلسفة؛ باعتبارها أمّ العلوم من جهة، وتقارب الموضوعات من جهة موازية.

1– تعريفها:

يمكن اختصار تعريف "العبثية" أو "اللامعقولية" "Absurdité" في الأدب الحديث على أنّها ظاهرة حديثة تدعو إلى «الخروج عن دائرة المعقول والمعروف في الأدب والفنّ إلى مجالات جديدة لا تتقيّد بالحدود المعقولة والموازين المعروفة»[1].

في هذه الحالة يصبح الفنان أو الأديب حرّاً في اختياره وتعامله مع موضوع مادته الأدبية ويطلق العنان لأهوائه ورغباته، وهذا بغضّ النّظر إن كانت تتفق مع العرف أو الدين الذي ينتمي إليه، فليس للفكر العبثي سلطة أو قانون.

ليس هذا فحسب، وإنما تجد "العبثية" منافية للعقل والمنطق، فيقوم الفنان أو الأديب بخلق عالم جديد، يسبح فيه وحيداً، منسلخاً فيه عن عالمه الواقعي، هذا العالم الذي بحروبه وأهواله ومشكلاته هيأ الظروف والبيئة المناسبة للهروب من هذا الواقع الأليم.

[1]– بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، الرياض، ط3، 1986م، ص 328.

ومما تجدر الإشارة له أنّ الأديب حينما يتخذ من "العبثية" مساراً لإنتاجاته الأدبية، هو في الحقيقة لا يهدف إلى البحث عن حلول لمشكلات عصره الأمر الذي اعتدنا عليه في إنتاجات الأدباء القدامى-، وإنما هدفه الجوهري الأساسي والوحيد هو محاولة إقناع المتلقي بأن هذه الحياة لا تستحق أن يعيشها الإنسان.

يمكن اختصار كلّ هذا في معادلة بسيطة هي أنّ «الإنسان هو إذن عبد الحاضر، واقع في مصيدة الزمن، نتاج الظروف ولعبة القدر، وحين يريد القدر فإنه يملأ الإنسان بالحماسة والصّحة والأوهام، أمّا حين يستغني عن خدماته فإنه يتركه جافا سئماً»[1]، وهذا هو جوهر التفكير اللامعقول ومبدأه الراسخ.

حتى أنّه قد وصل الأمر بالكثير من الكتّاب والأدباء إلى الدّعوة للانتحار ظنّاً منهم أنّه الوسيلة الوحيدة للتخلّص من عذاب الحياة التي ليس لها معنى في نظرهم.

2- العبثية عند الغرب:

لعلّ أدقّ مرحلة ظهرت فيها "العبثية" هي مرحلة الحداثة «فالرواية الوجودية والرواية الجديدة (أو اللارواية) ومسرح اللامعقول كلّها أنواع داخلة تحت مسمّى الحداثة»[2]، وإنّ أوّل ظهور للعبث في الأدب كان على مستوى المسرح، فسمي هذا التيار المسرحي باسم مسرح العبث، «فارتبط هذا التيار باسم الكاتب المسرحي الأيرلندي صامويل بيكيت Samuel Beckett، وخاصة مسرحيته الأولى الشهيرة "في انتظار جودو" والتي جسدت المعنى الحقيقي للعبثية»[3].

---

[1]- كولن ولسن، المعقول واللامعقول في الأدب الحديث، تر: أنيس زكي حسن، دار الأدب للنشر، بيروت، ط4، 1978م، ص129.

[2]- شكري محمد عيّاد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1993، ص125.

[3]- ينظر، نهاد صليحة، التيارات المسرحية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب للطباعة، مصر، د.ط، 1997، ص 125.

ويعدّ "صامويل بيكيت" من «أكثر الكتّاب الشبان الأيرلنديين أهمية»[1]، وذلك للقيمة الفنيّة والجمالية الكبيرة التي تحملها كتاباته ومؤلّفاته التي لاقت شهرة واسعة في أرجاء العالم، «لقد أدرك "بيكيت" أنّ الرؤية العبثية رؤية عدمية تؤدي بالضرورة إلى انتفاء القول والفعل»[2]، فتصبح الحياة هنا دون معنى ودون هدف، حياة يملأها اليأس والقنوط، القلق والحيرة، ويغدو الوجود الإنسان غير مجدٍ.

العبثية عند العرب:

وإذا كان "صامويل بيكيت" من أهمّ الرّواد الكبار لهذا النوع من المسرح عند الغرب، فإنّ "توفيق الحكيم" هو رائد هذا المسرح عند العرب، وقد «كان سفر توفيق الحكيم إلى فرنسا في عام 1925 وبقاؤه فيها بضع سنين ذا أثر كبير في فكره وفنّه المسرحي، فقد شاهد روائع المسرح العالمي»[3].

تتجلّى سمات هذا التيّار في أغلبية الإنتاجات الأدبية لـ"توفيق الحكيم"، وخاصّة في مسرحيته "يا طالع الشجرة" والتي تصدّرت قائمة المسرحيات العبثية العربية بامتياز، وشكّلت بوادر هذا التيار في أدبنا العربي، كما أنّها أُعتُبِرت نقطة تحوّل في المسيرة الأدبية العربية.

في مسرحية "يا طالع الشجرة" «نجد أشياء غير معقولة لشجرة تطرح البرتقال والمشمش والتين والرّمان لا وجود لها في الطبيعة، وهي صورة لا تخضع لمنطق يلفّها الغموض والغرابة (...) إنه أراد بهذا الخلط العجيب للشجرة أن ينفذ إلى صميم الأشياء عن طريق حاسة مجهولة تعي ما هو خفيّ في الحياة»[4]، أي أنّ "توفيق الحكيم" قد سار على منهج الرمزية الذهنية في كتاباته ومؤلّفاته تأثرا بالفكر الغربي عامّة والمسرح الغربي خاصة من منطلق عشقه للمسرح منذ الصّغر.

خصائص تيار العبثية:

يمكن حصر خصائص العبثية في النقاط التالية:

- الرمزية في المعاني، فيصبح من الصّعب كشف دلالاتها.
- الغموض والنزوح نحو التعبيرات غير المباشرة.
- اللاتفاهم وعدم الانسجام في هذه الحياة غير المنسجمة.
- الصراع مع الذات ومع الآخر ومع واقع الحياة المرّ.
- قلّة الأحداث وبالتالي تكون الحركة بطيئة.

[1]- محمد مصطفى هدارة، دراسات في الأدب العربي الحديث، ص ص 284- 285.

- الشعور بالحزن والاكتئاب.
- تداخل الزمّان والمكان.
- النزعة التشاؤمية وغلبة طابع القلق واليأس والسّخط.
- الحوار غير المنطقي وغير المألوف.
- محاولة لمس أهم القضايا الحياتية، ومواجهة وقائع الحياة.
- لا يهتم بالألوان، كما «لا يهتم بالمظاهر الأخاذة سواء في الطبيعة أو على منصة عرض أثناء التجسيد الدرامي»[1].
- السخرية من واقع الحياة.

بدأت العبثية كتيار أدبي في فرنسا ثم انتقلت إلى مختلف دول العالم خاصة تلك التي عانت من ويلات الحرب، فقد تولّدت قناعة لدى الكثير من الأدباء بأنّ المسلك العقلي قد يدمّر في لحظات قليلة ما بناه الإنسان سنوات طويلة، وجسّد الأدباء اللغة العبث في كتاباتهم من خلال الرموز وما قد تحمله من دلالات تعكس شطحات العقل الإنساني ورؤيته المشوّشة والمضطربة في الكثير من الأحيان، تلك الرّؤية التي تجمع بين القبح والجمال والأسطورة والواقع.

[1]- منير الحافظ، المعيار الجمالي في فن اللامعقول، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003م، ص 17.